طقوس الماء عند الأمم القديمة
مقاربة إناسية

عيسى عيساوي

المدرسة العليا للأساتذة ❖ قسنطينة ❖ الجزائر

ملخص

يعنى هذا البحث بطقوس الماء عند الأمم القديمة، وارتباطها بالعقل الديني والروحي لكثير من معتقدات البشر ودياناتهم.وأيّ باحث في مقارنة الأديان سيدرك عند تتبعه للنصوص الدينية الموقع المتميّز لحيّز الماء بها، حيث لا تكاد تخلو عقيدة دينية من تقديسها لعنصر الماء بطريقة ما، سواء في جانبها الفكري أو الطقوسي.ولأنّ الدين يتكون من معتقد ومن أسطورة ومن طقس، فإنّ هذا البحث يأتي ليجيب عن مشروعية أن تكون الطقوس المائية دين أم لا؟؟وإن لم يكن كذلك تحوّلت هذه الظاهرة الدينية إلى ظاهرة فلسفية.

Abstract

This article highlights the rituals related to water; and their spiritual and religious aspects, as practiced in ancient communities, creeds and religions combined. The study of religious texts in the context of comparative religion highlights the place occupied by these practices and rituals of the water which were sanctified every religion. And as any religion as a whole rests on faith, legend and ritual, it will now be possible to ask the following questions: can we consider the yearly water rituals as a religion or not? If not how did this religious phenomenon transform into a philosophical one?.

توطئة:

ارتبط الماء بالعقل الروحي والديني لكثير من معتقدات البشر ودياناتهم، وأيّ باحث في مقارنة الأديان وعلم الأناسة سيدرك عند تتبّعه للنصوص الدينية الموقع المتميّز لحيّز الماء بها، فلا تكاد تخلو عقيدة دينية من فكرة تقديس الماء، بطريقة معينة، سواء كانت فكرا، أو طقسا.

ولا ريب أنّ الماء موغل في تاريخ الحضارات القديمة، فالحضارة المصرية ارتبطت بنهر النيل وحضارة سبأ ارتبطت بالمياه الموسمية وسدّ مأرب، وحضارة العرب ارتبطت ببئر زمزم . هذا الارتباط الحضاري أضفى نظرة قدسية للماء في جميع الأديان السماوية. فالماء في تاريخ المخيال البشري هو أصل الكون، و الرحم الأولى لكل خلق : (وجعلنا من الماء كل شيء حيّ)[1] بل هو سابق للوجود . وتنتمي أساطير التكوين في الميراث الميثولوجي في الغالب ـ إلى زمرة الميلاد المائي[2]، إنهّا المياه البدئية أو العماء الأوّل الذي سبق الوجود ذلك أنّ الحالة السابقة لبدء الكون والحياة هي العماء المائي: ساكن لا متمايز، لا متشاكل، في زمن سرمدي متماثل، لا ينتابه تغيير ولا تبديل كأنّه عدم . وفي لحظة معينة كانت صرخة مفاجئة أو هزّة مدمّرة يليها بناء جديد حين ينبثق الكون من لجّة العماء[3]...

فالماء هو أصل وجود الحياة، وهذا ما انتهى إليه فكر السومريين، فعندهم أنّه من الماء خرجت الحياة وعمرت الأرض والسماء، أما الحضارة الرافدينية القديمة فترى أنّ الإلهة "إنانا" قد استعادت حياتها بتناولها ماء الحياة بعد أن أوشكت على الموت.

ماء الحياة الذي وهب " إنانا" الخلود بعد الفناء، يمثل في الأساطير الدينية القديمة ماء الذكر؛ رمز السماء الواهبة، وأمّا الأرض فهي الأنثى المخصّبة المستسلمة لقدر هذا التزاوج الكوني الذي يمثّل بدء العملية الحياتية، هذه القدسية بطقوسها الدينية جعلت الإغريق القدماء يقدّسون بعض الأنهار والبحار حتىّ منحوا المياه آلهة مسئولة عن الخير والخصوبة والكوارث لذا فلا غرو أن نلفي "نرسيس" يقع في حبّ صورته المنعكسة على المياه ويموت غرقا فيها،أمّا "أرخيلاوس" فهو إله السواقي الذي يشترك مع الماء في الجريان، وكثيرا ما يأخذ شكل ثور، وهو ما يفسّر ربط الثور بالعواصف والأنواء والأعاصير والأمطار في الثقافات الشرقية القديمة.

ولعلّنا نجد في هذا المعتقد الإغريقي لطقوس الماء تبريرا طقسيا لما هو شائع في الديانة المسيحية، في باب مراسيم التعميد، فالماء لا يستعاض عنه كرمز للتطهير من الذنوب ، أمّا عند اليهود فالماء مقدّس في سفر التكوين القائل بأنّ روح الله يرفّ على وجه المياه، وهذا المعنى موجود في التكوين التوراتي على هذا النحو: في البدء خلق الربّ السماوات والأرض وكانت الأرض خربة، وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الربّ يرفّ فوق وجه الماء.

وعليه لا يختلف اثنان في أنّ الماء عنصر مقدّس في تاريخ المخيال البشري، فهو أصل الكون والرحم الأولى لكل خلق، لهذا السبب العقائدي كان الماء القوّة الكامنة لميلاد الوجود وهو ما جعل "مارسيا إلياد *Mircea Eliade* يذهب إلى القول بأنّ المياه ترمز إلى القوى الكامنة، وإلى جملة الإمكانات الكونية–ما هو موجود بالقوة– إنّها ينبوع الأصل والحوض الذي يضمّ كلّ إمكانات الوجود وهي تسبق كل وجود وتساند كل خلق .

فالماء قبل أيّ عنصر كان موطن الروح الإلهي، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم في قوله عزّ وجلّ: (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستّة أيّام وكان عرشه على الماء)[4] . فإذا كان روح الربّ يرفّ فوق وجه الماء وإذا كان عرش الرحمان على الماء، فلا ريب أن يحمل هذا العنصر مدلولا مقدّسا.

فالماء مصدر حياة وتجدّد وانبعاث وقدسية وطهارة، هذا الفضاء أو الحقل يمثّل الصورة الإحيائية للقوّة الكامنة في عنصر الماء، ولكن ثمة قوّة أخرى له،إنّها القوة التدميرية، أو الصورة السلبية الرمزية للماء فهي تدمّر الأشكال وتلغيها،وقدرها أن تسبق الخلق،وأن تقضي عليه[5].

وفي إطار الرمزية السالبة للماء يظهر الماء مساويا للموت وهو ما يرمز لرجوع الإنسان إلى العماء الأوّل أي المياه البدئية، فالسيول ومسارب المياه والمياه العكرة السوداء ترمز إلى الموت[6]، وماء تنتالوس ماء وهمي مخادع كالسراب يقود إلى الموت، والطوفان غسيل تاريخي يؤذّن بالموت الجماعي. أمّا في إطار الرمزية الموجبة فيتحوّل الماء إلى عنصر

تطهير فالماء الطهور يغسل الخطايا ويطهّر الجسد والروح، فالمياه المقدّسة التي كانت قديما تشفي الجسد أصبحت شافية للروح أيضا[7]، وليس بعيدا عن هذا المعنى أن تبدأ كل شعيرة دينية في الإسلام بالتطهير.

والماء في سيرورته الترميزية أمّ رؤوم، ومادامت المياه ترمز إلى الأنوثة الكونية أو الرحم الأولى، فهي المبدأ الأنثوي الفعّال، وآلهة أمّ، ومن صفات أنوثة الماء أنّها: ليّنة، غنوج، رقيقة، عذبة، ولود، مرآة صافية، عكرة، متقلّبة كثيرة التبدّل، ساكنة هوجاء، دافئة باردة، جامدة، حرّة، تسيل دون أن يحدّها شيء، وتترك نفسها تنساب مع سمت الأرض[8]... .

ولعلّ هذا المبدأ الأنثوي للماء هو ما يعنيه لفظ الآلهة المصرية القديمة "ماريكا" أي الماء الأمّ وبطن الطبيعة الدائمة والعذوبة وأبدية الخصب، وهي قريبة من "ميريام" اليهودية المسيحية، وفي الفيدا الهندية تسمى المياه "ماتريكاما" أي الأكثر أمومة....

وعليه فإنّ الأساطير الدينية تتحدث عن خلق الإنسان الأوّل من التراب والماء، وهو ما جعل فكره يحوّل أسطورة خلقه الأولى إلى ممارسة طقسية يقوم بها في حياته،كلّما احتاج إلى أن يولد ويخلق من جديد، فهي إذن عملية تواصل مع الخلق الأوّل وتجديد في الحياة، وهي الفكرة التي سنحاول إثباتها من خلال تعقّبنا ورصدنا لطقوس الماء إن في الحضارات القديمة أو في الأديان السماوية،حسب ترتيبها الكرونولوجي.

I. قدسية الماء ودلالته في حضارة ما بين النهرين:

الماء أصل جميع المخلوقات ومبدؤها في أساطير بدء الخلق، فهو الأوّل أصلا لجميع الكائنات، وهو طوفان تعاقب به البشرية،إذن فلا غرو أن يكون الماء رمزا من رموز البشرية الحبلى بالدلالات، وأن يكون مادة أسطورية عند الشعوب القديمة، ولعلّ أولى هذه الأساطير التصاقا بالمخيال البشري هي أسطورة الخلق من الماء العذب النيّر، والماء المالح المظلم . هذه الثنائية تذكّرنا بأساطير شعوب بلاد ما بين النهرين فمبدأ الحياة عندهم...مبدأ مزدوج هو "الأبسو"؛ الماء العذب الذي ينزل من السماء؛ أي ماء الأنهار و"تيامات" مياه المحيط المالحة)[9].

إذن فالماء أصل الكون والحياة، وهو ما أنتج كثيرا من أساطير الماء وآلهته وما يتصل به من قداسة وخصوبة وجدب وفيضان وطوفان وموت وحياة، كما أنتج كثيرا من الشعائر والطقوس التي كان الإنسان القديم يتعبّد فيها لآلهة الماء وأرباب البحار والعيون والآبار.

II.الماء في أساطير مصر القديمة :

تتّفق أساطير العالم القديم على أنّ الماء أصل نشأة الكون والأحياء، وإذا كان لا بدّ لكل أصل من مرجع نعود إليه فإنّ الفكر المصري القديم كان قائما على خيال أسطوري جامح. (ولعلّ أقدم ما تخيّله المصريون في أصل العالم المعمور، أنّه عالم واسع من الماء، طفت عليه بيضة عظيمة خرج منها ربّ الشمس وأنجب أربعة أبناء هم "شو" و"تفنوت" القائمان بالقضاء و"جب" ربّ الأرض و"نوت" ربّ السماء...)[10].

وطبقا لأساطير مصر القديمة فإنّ "رع" إله الشمس عرف أنّ إنسان الصعيد والصحراء تآمر عليه، فدعا له مجلسا من الآلهة "حتحور" لقتل وإبادة الجنس البشري، غير أنّ الإله ندم على قراره بعد أن قامت عينه بتنفيذ بعض مهمتها، فعزم على إنقاذ البشر محاولا تضليل العين لإنقاذه، غير أنّه سئم من بقائه على الأرض بين الناس فنصحه المحيط الأزلي بأن يمتطي ظهر البقرة "نوت" (فلمّا أن لاح الفجر وبدأ الناس يرمي بعضهم بعضا بالسهام نهضت البقرة "نوت" و"رع" على ظهرها[11]. وعلى هذا النحو الأسطوري تخيّل قدماء المصريين أنّ السّماء على هيئة امرأة لها رأس صقر أحيانا وتخيّلها أحيانا بقرة ذات رأس آدمي يزيّنه قرنان كبيران، وهي بعينها ربّة السماء "حتحور".

ولمّا كانت تنقلاّت المصري كلّها بواسطة السفن فوق سطح نيله، فقد تخيّل بالمثل أنّ الشمس والقمر والنجوم تتحرّك في السماء فوق السفن وفي هذه الحالة لابدّ أن تكون السماء بحرا خضمّا، وهي الماء البارد أو البحر الذي يجري تحت بطن الإلهة "نوت"، أما المطر فكان يأتي من تلك المياه الحيّة الموجودة في السماء. كما ورد في كتاب "المعتقدات الدينية لدى الشعوب" لجفري بارنارد "*Bernard Jevries*"حول أساطير الخلق أنّ الإله الخالق الأوّل هو "أتوم" الذي اتحدّ في هوية واحدة مع إله الشمس "رع".

وتقول الأسطورة: (أنّ "أتوم" خرج من عماء المياه الذي يسمّى "نون" ثم ظهر فوق تلّ وأنجب بغير زواج الإله "شو" بمعنى الهواء والآلهة "تفنوت" بمعنى الرطوبة، وكان إله الهواء "شو" هو الذي زجّ بنفسه بين آلهة السماء "نوت" وزوجها إله الأرض "جب")[12].

والذي يهمّنا في هذه الأسطورة هو اعتقاد المصريين القدماء أنّ الإله "أتوم" خرج من عماء المياه، وهو ما يحملنا على القول أنّ الطقوس الدينية اليومية لم تكن لتمارس بمعزل عن الماء، فهي تبدأ في جميع المعابد القديمة بتطهر الكاهن في البحيرة المقدّسة القائمة بجوار المعبد وبعد ركوعه وسجوده لتمثال الإله في المحراب الداخلي يجرّد التمثال من ثيابه ويطهّره ويزيّنه بثياب وشارات مناسبة.

وقد مارس المصريون هذه الطقوس على موتاهم، وهو ما يسمّى بالطقوس الجنائزية فكان الميت يدفن دائما ولا تحرق جثته كما تؤدى الطقوس الخاصة بفتح الفم لجسد الميت ولتمثال المتوفي وتشمل هذه الطقوس على ممارسات التطهّر والقربان.

و«نهر الحياة»، «النهر المقدس»، «نيل الجنة» كلّها أوصاف أطلقها المصريون على النهر الخالد منذ بدايات التاريخ، ففى عصر الفراعنة كان ماء النيل جزءاً أساسياً من طقوس العبادات وغسل الموتى، وتغنّى المصريون القدماء بـ«النهر المقدس»، وجعلوا له عددا من الأرباب والربّات، من بينهم «حابى» و«سوبيك» أو (الربّ التمساح)، الذى كان يعبد فى إسنا وكومأمبو والفيوم. و«خنوم» ربّ الفيضان والخلق، والربّة «ساتت» زوجة «خنوم». وكانت «حكت»، الربة الضفدع، هى ربّة المياه عند الفراعنة.

وفيضان النيل الذي شكّل أهمية كبرى في الحياة المصرية القديمة كان يحدث بصورة دورية في فصل الصيف ويقوم بتخصيب الأرض بالمياه اللازمة لذا قام الفلاحون بالزراعة طوال العام في انتظار هذه المياه، ففي مصر الفرعونية ارتبط هذا الفيضان بطقوس شبه مقدّسة حيث كانوا يقيمون احتفالات عيد وفاء النيل، ابتهاجا بالفيضان كما قاموا بتسجيل هذه الاحتفالات في صورة نحت على جدران معابدهم ومقابرهم وكذا الأهرامات لبيان مدى تقديسهم لهذا الفيضان، وهو أحد الأعياد المصرية التى ترجع إلى

العهد المصري القديم منذ سبعة آلاف عام.ومازال المصريون يحتفلون به حتىّ اليوم ولم يتغيّر من الاحتفال شيء سوى أنّ المصريين لم يعودوا يلقوا بعروسٍ خشبية في النيل بل اقتصر الأمر على الاحتفال على ضفاف النهر.

ويقول عبّاس محمود العقاد في كتابه "عبقرية عمر: "إنّ رواية عروس النيل قابلة للشكّ في غير موضع فيها عند مضاهاتها على التاريخ وقد يكون الواقع منها دون ما رواه الرواة بكثير، ورغم ذلك عاشت الأسطورة في وجدان مصر وتناولها الأدباء والشعراء والفنانون ومازالت كتب كثيرة تردّدها كواقع، لكن الحضارة المصرية بأصالتها وعمقها تؤكد كل يوم وعيها وتحضرها لقد قدست مصر النيل العظيم شريان الحب والنماء نبعا لخير والخضرة والازدهار واحتفت به وظلّت تناجيه في أناشيدها المقدّسة وصاغت الملاحم في عشقه ولكنّها أيضا قدّست الإنسانية والإنسان ولم تضح بروح إنسان من أجل فيض النهر الخالد وهذه شهادة لمصر لا ضدّها.

وكان الزفاف إلى النيل غاية تتمناها كل فتاة في مصر تعبيرا عن قداسة هذا النهر العظيم الذي تصوره المصري القديم إنسانا، وجعلوه إلها وسمّوه "حابى" وهو ما جعل شوقى يخاطبه قائلا:

لاَقَيْتُ أَعْرَاسًا وَلاَقَتْ مَأْتَمًا كَالْشَيْخِ يَنْعَمُ بِالْفَتَاةِ وَتَزْهَقُ.[13]
فِي كُلّ عَامٍ دُرّةٌ تُلْقَى بِلاَ ثَمَنٍ إِلَيْكَ وَحُرَّةٌ لاَ تصدق
حَولتُ سَائِلُ فِيه كُلّ نَجِيبَةٍ سَبَقَتْ إِلَيْكَ مَتَى يُحَوَّلُ وَتَلْحَقُ

ونجده يقول في موضع آخر:

النِّيلُ العَذْبُ هُوَ الكَوثَر وَالجنَّةُ شَاطِئه الأَخْضَرُ.
رَيَّانُ الصَّفْحَةِ وَالمَنْظَرُ مَا أَبْهَى الخُلْدِ وَمَا أَنْظَرُ

ويؤكد الباحث مختار السويفي أنّ الحضارة المصرية حضارة راقية لم تعرف على مر العصور الضحايا البشرية لأيّ إله أو معبود مهما علا شأنه، ويقول السويفي: إذا كان للنيل عروس فهي أرض مصر كما أنّ نقوش المعابد المصرية والبرديات التي

عدّدت مظاهر الحياة والتقاليد والعبادات لم تذكر حكاية عروس النيل ولو كانت هذه حكاية حقيقية لما أغفلتها النقوش، ورغم ذلك عاشت الأسطورة في وجدان مصر.

III. الماء في الأساطير الإغريقية:

ليس في الميثولوجيا الإغريقية،، نبيّ متفوق، (وليس فيها سعي إلي تفسير طبيعة الآلهة ولم يعرف في الديانة الإغريقية كتاب مقدس، ونصّ محددّ يعلّم الفضيلة والأخلاق الصالحة، ويكشف عن حقائق الظواهر الطبيعية والكونية)[14] ولم يعرف في هذه الديانة مخطط واضح ليوم الحساب والبعث. الأمر الذي يدعو إلى عدم انتظار تعاليم وعقائد صارمة يقوم على ترويجها كهنة مميّزون ومنظمّون في تراتبية كهنوتية دقيقة، وأعتقد الإغريق في الحسد والمعجزات والخرافات، ولقد كانت التمائم شائعة الاستعمال سواء علّقها الأشخاص على أبواب منازلهم، أو على صدورهم لتردّ الأرواح الخبيثة، (وكانت التعاويذ السحرية تستخدم لمنع الأخطار وللشفاء من الأمراض وإنزال المطر من السماء وإهلاك جيوش الأعداء)[15]

ولا يخفى أنّ استعمال الماء في الطقوس الدينية كان شائعاً بين الوثنيين من اليونانيين والإغريقيين إذ كانت التطهيرات الدينية جارية، فإنّهم عند دخولهم إلى هياكلهم كانوا يستحمون أو بالأقلّ ينضحون الماء على أجسادهم، وكان هذا الغسل مستعملاً على الخصوص في طقوسهم السرّية، كما استعملوا الماء المكرَّس واعتقدوا بأنّ له قوة مطهّرة غير معروفٍ فيها بالكلّية، وكان المسيحيون من الإغريق يكرهون رشّ أنفسهم بالماء قدام الهياكل لأنهم يحسبون ذلك خرافةً وثنية.

IV. الماء في الأساطير اليونانية:

تبدأ رحلة الأساطير المائية عند اليونان بأفردويت الأمّ المولودة من زبد البحر، (ولتسميتها"المولودة من زبد البحر" معنى مزدوج، فهذه التسمية تدل على البحر الذي خرجت منه "أفردويت"، كما هي الحال في لوحة بوتشيلي الشهيرة كما تدلّ أيضا على الرغاوي المحيطة بالحيوانات المنوية)[16] .

إنّ هذه النظرة القدسية لعنصر الماء صحبتها طقوس كهنوتية عند اليونان ولعلّ أهمّها: طقس التطهّر والقداسة، فالدنس تهمة بشعة لذلك وجب على أورست أن يتطهّر

ولو بدم خنزير كما هو مرسوم على مزهرية، وهو طقس غريب يجعلنا نتساءل عن دلالة القداسة في دم الخنزير كوسيلة للتطهير عند اليونان بدلا من الماء، ولعلّ الأغرب من هذا الطقس هو استئصال الموضوعات المادية المرتبطة بجريمة ما، ففي جزيرة "قوس" بعد أن انتحر رجل بشنق نفسه على شجرة، عوقب الحبل والشجرة بالإبعاد، وفي أعياد "بوفينيا "-وهو عيد يحتفل فيه "لزيوس" في أثينا - يفرّ الكاهن بعد التضحية الرسمية وتحاكم الفأس وتدان، ويلقى بها في البحر.فالبحر إذن وسيلة للتطهير، وإن كانت أساليبه عديدة ولعلّها أبسطها التضحية بخنزير أو كلب، أو ديك، أو الاغتسال في ماء البحر.

إذن؛ فالماء الذي يتمثل في صورة" الأوقيانوس OCEANU "[17] (كان أحد الموجودات الأولية في الأساطير اليونانية.وفي باب الخرافة يصور" ثاوفرأسطوس"[18] في كتابه البديع "الطباع" الرجل المؤمن بالخرافة في صورة كوميدية بقوله: (...إنّ المؤمن بالخرافة هو ذلك النوع من الناس الذي لا يخرج من داره أوّل النهار، إلا بعد أن يغسل يديه ويرش نفسه بالماء من العيون التسع..)[19]

والذي يستوقفنا في هذا التعريف هو حضور الماء مصحوبا بطقس كهنوتي يتمثّل في عملية الرّش من العيون التسع، رغبة في التطهير الروحي والجسدي معا. ولم يكتف الرجل المؤمن بالخرافة في نظر "ثاوفرأسطوس" بتطهير ذاته بل هو دائم الاحتفال بتطهير بيته لأن الآلهة "هيكاتي HECATE "كانت تسكنه.

V. الماء في الأساطير الفارسية:

إنّ العناصر التي يتألّف منها العالم حسب ما جاء في كتاب الأبستاق (*Avesta*)[20] ثلاثة وهي: النار والتراب والماء.وللزرادشتية، كالهندوس والسيخ رموز تقرّبهم بدينهم، أمّا الرمز الأوّل فهو: (الكوشتي *kushti*)، وأمّا الثاني فهو: قميص (الصاندر *Sandre*) ويرمز إلى الدين.

والطقوس عند الزراد شتيين نوعان: طقوس النار وطقوس القربان، ولا بدّ للكاهن أن يمرّ بطقوس التطهّر قبل أن يقوم بأيّ عمل رئيسي من أنواع العبادة، وغالبا ما يتم

الاعتراف بالخطايا التي ارتكبت عن طريق الكلام أو العمل أو عن طريق التفكير. وفي طقوس الإله (هو ما *Haoma*)[21] يسحق الإله ومن العصير يستخرج شراب الخلود.

أمّا المانديون أو النازوريون[22] فيمارسون طقوس التعميد اعتقادا منهم أنّه يحرس الإنسان ويحميه من الأرواح الشريرة، وهو جوهري للخلاص، فهو تطهّر للنفس والبدن في آن واحد، وبعث جديد للحياة.فولادة الحياة عند الفرس انطلاقا من الفرقتين الزرادشتية والماندية تنطلق من الماء المقدّس أو الماء الطهور، ولا يبرح الماء طقوس الماسيكتا (*Massiquta*) أي الارتقاء أو الصعود حيث تعبر الروح إلى عالم النور عن طريق ممارسة شعائر التطهر الشهيرة عند وفاة شخص ما .

وللماء كما للنّار أهمية في الطقوس الزرادشتية والنصوص المقدّسة (الابستاق) تعتبر أنّ الماء والنار يمثّلان حياة مستقلة بحدّ ذاتها، ولا يخلو المعبد الزرادشي من هذين العنصرين، فالنار تعدّ الوسط الذي يزوّد الإنسان بالحكمة وأنّ الماء يعتبر مصدر هذه الحكمة، ونلفي في عيد "النيروز" وهو عيد فارسي طقوسه احتفالية تقوم على إشعال النيران لتحليل العفونة واللّزوجة التي يتركها الشتاء ورشّ الماء لتطهير الأبدان من دخان هذه النيران .

وقد تسرّب هذا الاحتفال إلى عرب الجاهلية، فأهل يثرب كانوا يحتفلون بالنيروز والمهرجان فأبدلهما الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعيدي الفطر والأضحى.

VI.الماء في الأساطير الصينية واليابانية :

تتجلّى أسطورة الماء عند الصينيين القدماء في الطقوس الدينية وخدماتها، ولاسيّما في الديانة "التاوية"، فقد طوّرت الكنيسة ضروبا من الطقوس الدينية تقام للتكفير عن الخطيئة وكفّارة المرض، إذ يقوم الكاهن بتلاوة بعض التعاويذ على الماء، ثم يقدّمه إلى التائب ليشربه، فإذا فشلت هذه العملية في تحقيق الشفاء، يعزى الفشل إلى نقص الإيمان.

ولعلّ الطقس الديني الملفت للانتباه هو ما يعرف عند الصينيين على المستوى الشعبي باسم "عقيدة مكيالات الأرز الخمسة" إذ تدوّن الخطايا كما تسجّل الاعترافات (وتعدّ ثلاثة نسخ توجّه إلى السماء والأرض والماء، توضع الواحدة على قمة جبل بينما تدفن الثانية في

باطن الأرض، وتغطس الثالثة في الماء) فلا غرو إذن أن تقوم الجماعة "التاوية" المؤمنة للاحتفال بالعوامل الثلاثة الفعالة: "السماء والأرض والماء" كل عام.وتقام الخدمة الدينية خمس مرّات كل عام للمؤمن الراحل، وتقدّم خدمات معينة كالولائم الدينية، وتقام بعض القداسات من أجل مصالح خاصّة كمولد ابن أو الشفاء من المرض، أو نزول المطر وتزداد طقوس الكنيسة تعقيدا ولاسيّما في الطقس المسمّى بـ "تعويذة الذهب" الذي يقام احتفالا بالامبراطور ويخصّص لتفادي الكوارث الطبيعية كالفيضانات.

ولعلّ هذه الطقوس تحملنا على القول بأنّ قدماء الصين كانوا يمارسون طقوسا كهنوتية خاصة بالماء. (ومن الأسئلة التي تطرح حول آداب تقديم القرابين وتأدية الطقوس أنّ آلهة التلال والأنهار وغيرها من آلهة الطبيعة والأرواح الحارسة كانت تعبد إلى جانب أرواح الموتى، ولم يكن الموتى وحدهم هم الذين يسألون عن آلهة الهداية والإرشاد في مسائل السلوك، بل كان يتوسل إلى قوّتهم الداخلية (مانا *Mana*) حتّى تكفل خصوبة الرجال والنساء والمحاصيل والحيوانات)[23]. أمّا سكّان المناطق المحلّية في "كيو Chu " فكانوا يتضرّعون إلى آلهة الجبال والأنهار،ويغتسل الشامان سواء الرجال منهم أو النساء طبقا للشعائر، ويتعطّرون ويرتدون ثيابا رائعة الجمال استجلابا للمطر وطلبا للخصوبة.

أمّا في اليابان القديمة فقد كان المتعبّد يمارس طقوسا متميّزة أثناء زيارته الهيكل فبمجرد أن يتخطى "الثوري" الأوّل أي البوابة الأولى، لابدّ أن يغسل يديه وفمه من ماء نبع طبيعي في مجمع الهيكل، أو من حوض الماء المحفور في الصخر.وتتضمن العبادة الرسمية أكثر من ذلك أربعة عناصر هي:

1- فعل التطهر (هاراي *Haïrai*) بالإضافة إلى الاغتسال، عندما يلوح الكاهن بفرع من شجرة السكاكي أو بورقة منها على رأس المتعبّد.

2- القربان (شينسن *Shinsen*) ويكون من الحبوب أو الشراب.

3- طقوس الصلاة (*Norito*).

4- الوليمة الرمزية (*Neorai*) وغالبا ما يتناول الطقس الرابع رشف قطرات قليلة من خمر الأرز.

هذا وكانت صورة البوذية الشعبية في اليابان القديمة، هي الصورة التنترية "*Tantric*" التي جعلت لها تأثيرا ظاهرا في الشفاء من المرض، أو هطول الأمطار على حقول الأرز.

VII.طقوس الماء في الأساطير العربية قبل الإسلام:

الإنسان العربي كغيره من شعوب العالم البدائي كان شغوفا بالماء،كيف لا وهو يعيش في منطقة جغرافية جافّة، وهو ما جعله يرى في الماء ومصادره من الأمطار والرعود والبرق والسحب والآبار والعيون قوى مقدّسة اتّخذت في عباداتهم مظاهر ثلاثة أوّلها: النظر إلى هذه القوى بوصفها قوى كونية خفية قادرة على بعث الحياة والخصب قدرتها على إنزال الدمار والخراب، وثانيها التقرّب إلى هذه القوى الكونية بعبادتها بوصفها آلهة وإقامة الطقوس والشعائر لها، وتقديم القرابين؛ اتّقاء لشرّها واستجلابا لخيرها. والمظهر الثالث الذي اتّخذته هذه القوى الكونية في عبادات الجاهليين، هو إقامة الأصنام لها وتسميتها بأسماء مشتقة من الماء وظواهره مثل" يمّ"و"قزح"و"عائم"و"نهر"...).[24]

إذن هذه القوى المقدسة على اختلاف مظاهرها الثلاث تشترك في قاسم مشترك وهو إخلاص العبودية للماء، وما نصب الأصنام على شواطئ البحار، وإلى جدران الآبار والينابيع إلاّ دليل قاطع على تقرّب الإنسان العربي بشتّى الطقوس إلى ما في الماء من طاقة كامنة تمنحه الخصوبة والحياة.

ولعلّ قداسة العربي للماء لم تقف عنده كعنصر بل طالت حتّى مكان تواجده، فهو عندهم بمثابة الحمى الذي يحرم على الإنسان اقتحامه أو العبث به.

هذه العلاقة الصوفية بين الماء والإنسان الجاهلي حبلت بأساطير دينية تصوّر طبيعة الصلة المقدّسة التي نشأت في وجدان الإنسان الجاهلي، هذا الوجدان البدائي كان يلقي بحباله ليصل كل ماله علاقة بالماء المقدّس وتجلّياته، ولهذا السبب اختار الإنسان العربي حياة الحلّ والترحال مرغما، ينتقل من مكان إلى آخر طلبا للكلأ والماء، فإذا حدث وانحبس المطر وجفّت الأرض، وشحّت السماء، عمد حينئذ إلى استرضاء الآلهة متقرّبا إليها بتقديم القرابين لإنزال المطر،إذ إنّ العرب قبل الإسلام كانوا يمارسون طقوسا

دينية غريبة، فيجمعون لها بقرا معلّقة في أذنابها وعراقيبها السلع والعشر (ويصعدون بها إلى جبل وعر ويشعلون فيها النيران قبل المغرب ويضجّون بالدعاء والتضرّع وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصل بها إلى نزول الغيث).

أمّا إضرام النيران في أذناب البقر فهو طقس لتوليد البرق أوّلا ثمّ نزول المطر، وأمّا الدخان المتصاعد وركض الثيران فهو رمز لصوت الرعد، فلا غرو إذن أن نجد الشاعر يقول:

لا درّ درّ رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الأزمات بالعشر

أجاعل أنت بيقورامسلّعة ذريعة لك بين الله والمطر!

ولعلّ ظاهرة التسليع التي تحدّث عنها الشاعر في هذين البيتين قد أطلق عليها الأنثروبولوجيون اسم السحر التشاكلي[25].

وتشير طقوس العرب القديمة إلى تقديس القدماء للماء -لا بذاتها- وإنّما تقديسا للأرواح التي تحلّ فيها، فلا غرو إذن أن تكون المواضع المقدّسة في شبه الجزيرة العربية قد أقيمت عند الينابيع والآبار .

وإذا كان الساميون قد قدّسوا موارد المياه، فإنّ نصب صنم كهبل عند بئر الأخسف يشير إلى علاقته بالإخصاب عند العرب، كما نصبت العرب مناة على شطّ البحر بين مكّة والمدينة إجلالا لإله البحر "يم" الذي عرفه الساميون، والذي دخل في صراع حاد مع الإله بعل إله المطر والخصوبة.وتروي الأساطير القديمة أن الغلبة كانت للإله بعل إله الماء العذب والأمطار.

(ومن بين أسماء الآلهة كذلك عرف العرب الصنم "جدّ" الذي ذكر مع الصنم "مناة " في العهد القديم، ولقد كان الإله "جدّ" عموما إله الخصب والواحات، أمّا أسماء الأصنام والآلهة الأخرى التي عرفها العرب مثل "عائم " و" نهر" فتدلّ على تقديس العرب للماء بالمثل).[26]

وهكذا ارتبطت أسماء الآلهة عند العرب قديما بالماء، ويروى أنّ "أساف ونائلة" نصبا على حافة زمزم. هذا وقد قدّس العرب آلهة الخصب البابلية والكنعانية "عشتار" في صورة "اللاّت" ثمّ "العزى" وعشتار إنّما هي زوجة مردوخ، أو بعل إله الخصوبة في بابل وكنعان.

ولا شكّ أنّ بئر زمزم التي تفيض بالعذب من الماء في مكّة الشحيحة، لها موقع متميّز عن بقية الآبار والعيون فزمزم اختصت بخاصية دينية فهي العين التي فجّرها الله لإسماعيل عليه السلام وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلّها وفيها يقول الشاعر:

أَلمْ نَسـقِ الحَجِيـــجَ وَنَنحَرُ الدَّلاَفَةَ الرَفدا
وَنُلقِي عِنـدَ تَصرِيـفِ المَنَايَـا شَـدَّدا رَفَـدا
فإن نَهلِك فلَمْ نَمـلِك ومَـنْ ذا خَالِـدُ أَبَـدا
وزَمـزَمُ فِي أَرُومَتِنـا وَنَفقَأُ عَينَ مَن حَسَدا[27]

وغير بعيد عن شبه الجزيرة العربية في المناطق السفلى من العراق حول ضفاف الرافدين عاشت "الصابئة" وهي كلمة مشتقّة من صبّ الماء إشارة إلى اعتمادهم بالماء، ويسمّيهم ابن النديم في كتابه "الفهرست" بالمغتسلة، ويقوم جوهر الدين الصابئ على التوحيد، وتقديس قوانين الحياة والخصب. ورمز الحياة هو الماء الحيّ أو الماء الجاري "اليردنة" ومن هذا أنتج أهم طقس لديهم وهو الاغتسال في الماء الجاري والطهارة من الأدناس والتعميد في الماء والوضوء به، على أنّ التعميد في هذه الديانة نوعان:

تعميد طقسي وبموجبه يمنح الصابئ الاسم الديني، وتعميد غير طقسي، لا يحتاج فيه الصابئ إلى كاهن أو طقوس خاصة، وإنّما يرتمس في الماء الجاري ويغطس تحته ثلاث مرّات.

والإنسان العربي كان شغوفا منذ القديم بالصورة المائية بكلّ أبعادها ودلالاتها الرمزية، وهو شغف يفسّر قدرة العرب قديما على ملاحظة الظواهر المحيطة به؛ كونية كانت أم حياتية. وإنّ انبساط الصحراء من حول العرب مكنّهم من تأمّل الأشياء تأمّلا واعيا وهو ما حملهم على وصف الظواهر الطبيعية وصفا دقيقا في مختلف تحوّلاتها وتغيّراتها.

ولعلّ خلو شبه الجزيرة العربية من نهر بحجم النيل أو بحجمي دجلة والفرات جعل العربي يوجّه نظره إلى السماء واصفا السحاب في حالاته المختلفة، وكذا المطر وعيون الماء والغدران.

يقول ابن سيدة: "سحابة وسحاب وسحائب وسحب، سميت كذلك لانسحابها في الهواء، من سحبت الشيء أسحبه.إذا حررته، والغيم السحاب، وتربّدت السماء من تغيّمت السماء، فإذا أظلّ السحاب الأرض فهو الدجن، ولذلك توصف الليلة واليوم إذا غامت السماء بأنها ليلة دجناء ويوم دجنة..."[28]

وليس غريبا أن الماء هو المبدأ الأول للخلق لاسّيما في حضارة نشأت في إطار من المحل والقحل والقحط. وليس غريبا أيضا أن يرتبط مدلول الماء عند العرب بالمقدس وهو ما يحملنا على القول إننا أمام نموذج وموثق أسطوري، "فهذا عبد المطلب يأتيه- حسب ما يروي-آت يحدثه في طبيعة أشبه ما تكون بكلام الكهان بأمره يحفر زمزم ويسميها بأسماء يعددها ويبين له موضعها ويرشده إلى الآيات الدالة عليها ويتحقق ذلك في عالم اليقظة"[29] . "فأتى عبد المطلب في المنام فقيل له: أحفر زمزم خبئة الشيخ الأعظم. فاستيقظ وقال اللهم بيّن لي، فأتي في المنام مرة أخرى فقيل له: أحفر زمزم بين الفرث والدم عند نقره الغراب في قرية النمل مستقبلة الأصنام الخمر".

وبهذا المنظور فإن قداسة زمزم مستمدة من رمزية الماء، أولا كونه وسيلة للتطهير وثانيا كونه مجاورا للكعبة الشريفة، فالماء هو الأول بصفته رمزا للبدايات ولنهاية الكون الطهّارة حسا ومعنى، مقدّس كالدّم، هو ماء الحياة في أصلاب الآباء والأجداد ووسيلة للتجدد والخلود .

إن هذا القول يحملنا بلا شك على أن الماء في الأساطير العربية ارتبط بالمقدس فمن أجله تبذل الحياة قربانا ويكون الرحيل في طلية (كما في أسطورة قصة الخضر وبحثه عن عين الخلد).[30]

ولذلك بقي الماء في المرثية العربية في الدعاء بالسقيا، وبقيت بعض الطقوس الرمزية ومنها الثأر لتهدئة صداه، وكان في مزاعمهم كالطائر يصيح اسقوني ولا يهدأ حتى يثأروا له، ومنها سكب الماء على القبر أو في أثر الراحل.

ومن طقوس الماء عند العرب التطهّر والاغتسال، وهي عادة مستوحاة من رؤيا قديمة عنهم، وفي هذا المعنى تقول هالة الناشف:(وفي رؤيا رقيّة أنّها سمعت في المنام من يقول لها:"تطهّروا وتطيّبوا ثمّ استلموا الركن ثمّ أرقوا رأس أبي قبيس" ففعلوا قبل أن يتوجّهوا إلى ربّهم بالدعاء...)[31]. ومهما يكن فلا يختلف اثنان في ما للأسطورة المائية من أثر جليّ في حياة العرب قبل الإسلام، إذ إنّها تمثّل علاقتهم بالكائنات وآراءهم في الحياة، ومشاهداتهم، وكانت مصدر أفكارهم، ألهمتهم الشعر والأدب، وكانت الدين والفلسفة معا.

تأثر العربي الجاهلي بالماء فكانت ظاهرة التسليع أبرز طقس يعبّر به الشاعر الجاهلي عن فكره البدائي، كما مارس العربي طقوس الماء على مستوى عقيدته، خاصة بعد انتشار المسيحية والصابئة في شبه الجزيرة العربية. بينما أثّرت البيئة الصحراوية في الحجاز ونجد على طبيعة العرب،فالأشجار ناذرة والآبار والعيون قليلة، وهو ما جعل العربي اتّكاليا يعتمد على القضاء والقدر، ومن ثمّة لا يملك إلاّ أن ينتظر المطر،فهو ملاذه وخلاصه ولكنّه في النهاية انتظار مملّ .

ولئن كان مصدر الطقس المائي عند العربي مستوحى من الفكر البدائي ومن عقيدة العربي الوثنية أو المسيحية أو اليهودية، فإنّ مصدر هذا الطقس يتنامى وجوديا عند الشاعر تبعا لتنامي حالته الشعرية، فالمطر وهو عنصر من تجليّات طقس الماء يبدأ عند عبيد بن الأبرص وميضا لبرق يلوح ضياؤه فاترا، ثمّ يشتدّ حتّى يضيء سناه جنبات الكون ليصير وابلا من المطر، هذه اللوحة التصويرية القائمة على نظام مشهدي تشير في الحقيقة إلى جدلية الصراع بين الإنسان والطبيعة، لاسيّما أنّ عبيدبن الأبرص قد مهّد لموضوعه بحديث مقتضب يذكر فيه لوم وعتاب زوجته لإفراطه في شرب الخمر، إذ نجده يقول:

إن أشرب الخمر أو أرزأ لها ثمنا فلا محالة يوما أنّني صاحي[32]

ولا محالة من قبر بمحنية وكفن كساه الثور وضّاح

ثمّ يتخلّص من هذا العتاب إلى وصف مشهد المطر فيقول:

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه من عارض كبياض الصّبح لمّاح

دان مسفّ فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالـــــــراّح
فالتجّ أعلاه ثمّ ارتجّ أسفلـــــه وذاق ذرعا بحمل الـماء منـصـاح
كأنّما بين أعلاه وأسفلـــــــــه ريطم نشّرة،أو ضـــوء مصـــباح
هبّ جنوب بأولاه ،ومال بــــه أعجاز مزن يسحّ المـــــاء دلاّح
فأصبح الرّوض والقيعان ممرّغة من بيـــن مرتفق فيه ومنطاح[33]

إنّ هذه اللوحة الوصفية هي استثمار لمشهد خارجي طبيعي يشكّل إسقاطا لحالة داخلية تغمر كيان الشاعر، وهي محاولته التطهّر بعد الانصراف عن شرب الخمر، وذلك بالاغتسال المائي .

وعليه فاستحضار الشاعر للمطر ما هو إلاّ طقس من طقوس التطهّر، بينما يرسم لنا امرؤ القيس صورة أسطورية للمطر، فهو سيل جارف يهدم البيوت ويقتل السّباع، إذ نجده يقول:

فأضحَى يَسُحّ المَاءَ حَولَ كُتَيفَـةٍ يَكُـبّ عَلَى الأذقـانِ دَوْحَ الكَنَهبـلِ
وتَيماءَ لمْ يَترُكْ بها جِذْعَ نَخلَةٍ ولا أُطُمـاً إلاّ مَشيداً بجَنَـــــدَلَ
كـــأنّ ذُرَى رأسِ المُجَيمِرغُـدوَةً مِنَ السّيلِ والغُثّاءِ فَلكَةُ مِغزَلِ[34]

ولئن كانت رؤية شاعرنا للمطر رؤية تتسم بالتشاؤم فإنّه لا يختلف مع عبيد بن الأبرص في الرغبة إلى تبديد مظاهر الجدب من خلال الحديث عن المطر، حتى وإن كان موجودا في مساحة المخيال، وهو ما يحملنا على القول أنّ للمطر مدلولا رمزيا يوحي بالقوة والجبروت.

وما استحضارنا لصورة المطر عند عبيد وامرئ القيس في هذا المبحث إلاّ لنقف على أنّ الطقس المائي فرض حضوره بقوّة في المخيال الشعري المستمدّ من المعتقدات الأسطورية والموروثات الشعبية المتصلّة بظاهرة الماء التي أخذت تغزو عقل العربي القديم، "فتؤلّف ثقافته وتشحذ وجدانه وتشكّل لغته الفنيّة في استغلال ظاهرة الماء في موروثه من النثر والشعر، وهي معارف كانت شائعة ومعروفة في أساطير مصر القديمة وأساطير سومر، وبابل وأشور والهند، وغيرها من حضارات العالم قديما... وكلها تجمع

على أن الماء أصل الكون والحياة، وهو ما أنتج كثيرا من أساطير الماء وآلهته، وما يتصل به من قداسة وخصوبة وجدب وفيضان وطوفان وموت وحياة، كما أنتج كثيرا من الشعائر والطقوس التي كان الإنسان القديم يتعبد فيها لآلهة الماء وأرباب العيون والبحار"

VIII. الماء في الديانات السماوية:

أبرز استخدامات الماء في الأديان يتعلّق بالاعتبارات الخاصة بموضوع الطهارة، والتطهّر بحد ذاته يشير إلى مصطلح يقصد به مفهوم القيام بإزالة الخطايا والأمراض عن طريق استخدام الماء المقدّس، أو استخدام الاغتسال بالماء المقدس ضمن إحدى مراحل سيناريو عملية التطهير والتي تتضمن جوانب وخطوات أخرى:

أ. التطهر بالماء في اليهودية:

- عندما ينتقل المرء إلى مرتبة روحية أعلى.
- قبل الدخول إلى أماكن العبادة.
- قبل الدخول إلى المذبح.
- إزالة النجاسة والدنس.
- إبراز القيمة الرمزية لعدم ارتكاب واقتراف الذنوب.

ب. التطهر بالماء في المسيحية:

أكّد "بونتيوسبيلات"[35] بأن هيرى منذ نبقتل السيد المسيح عن طريق غسل يديه، ويعتقد بأن عادة محاولة إثبات البراءة عن طريق غسل اليدين، لم يأخذها المسيحيون عن اليهود، بل تعود جذورها إلى المراحل اليونانية والرومانية الأولى القديمة. كذلك عند تنصيب البابا، أو البطاركة، تتضمن طقوس بعض الطوائف المسيحية الاغتسال بالماء.

ج. الماء في الإسلام:

تنعكس قيمة الماء في الإسلام فيما ذكر بالقرآن الكريم "وجعلنا من الماء كل شئ حيّ". علاوة على ذلك، فقد أعلن النبيّ محمّد (صلى الله عليه وسلم) أنّ لكافة البشر

الحق في الوصول إلى الماء. وقد كانت الآبار تحمي بعدم السماح بحفر آبار جديدة في المحيط القريب للآبار القديمة، وكان يشار إلى هذه المساحة بكلمة "حرم". وقد طبق نفس المبدأ على الموارد المائية الأخرى. فقد أنشأ الرسول عليه الصلاة والسلام مؤسسة دينية أعلنت كملكية جماعية أطلق عليها "الوقف". وفي هذا السياق فقد أعلنت بعض الموارد المائية والآبار "كوقف" وأن يكون من حق كافة الناس الانتفاع بها. وبوجه عام فإن المبادئ الإسلامية فيما يتعلق بقوانين المياه مبنية على حقيقتين هما:

1- حق العطش، حيث يكون لكل الناس الحق في إطفاء ظمأهم وسقاية حيواناتهم.

2- حق الريّ، حيث يمكن أن تستخدم المياه لري الأرض والمزروعات.

ويعتبر الماء أساساً للطهارة، والتي تتضمن الآتي:

- الوضوء عن طريق غسل بعض أجزاء الجسم بالماء لعدة مرات في اليوم.
- غسل الجنازة.
- غسل الجنابة.
- إضافة إلى بعض الأغراض الأخرى.

وبالنسبة لعلاقة الماء بالحياة، فقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حيّ).أمّا أساطير الخلق عند المسلمين فتجمع كلّها على أنّ الأرض والسماء نشأتا من ماء، ففي حديث ابن مسعود: (إنّ الله تعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء، ولمّا أراد الله أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا ارتفع فوق الماء فسما عليه فسمّاه سماء، ثمّ يبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثمّ فتقها فجعلها سبع أرضين...)[36]وجاء في كتاب تاريخ الطبري حكاية أسطورية تنسب إلى وهب بن منبّه يقول فيها: (إنّ العرش كان قبل أن يخلق الله السماوات والأرض على الماء، فلمّا أراد أن يخلق السماوات والأرض قبض من صفات الماء قبضة ثمّ فتح القبضة فارتفعت دخانا، ثمّ قضاهنّ سبع سماوات في يومين وفرغ من الخلق في اليوم السابع).[37]

إذن فالماء في الإسلام هو المبدأ الأوّل في حضارة أنشئت في واد غير ذي زرع في مكان قفر من ماء ثجّاج أحيا الله به الأرض الميتة، فاهتزّت وربت وضجّت بالحياة.

وفي أساطير الخلق الشيعية: (إنّ الله لما رأى أعمال العباد في كفّة غضب من المعاصي فعرق فاجتمع من عرقه بحران أحدهما مالح والآخر عذب، والمالح عذب والعذب نيّر والخلق عندهم من البحرين، فالكفّار من البحر المالح المظلم، والمؤمنون من البحر النيّر العذب)،[38] وهذا ما يعتقده فئة المغيرية من غلاة الشيعة أصحاب المغيرة بن سعيد العجلي.

ويذهب ابن قتيبة إلى وجود بحر أسطوري تحت العرش هو الذي فسّر به المفسّرون البحر المسجور، وحديثه وارد في كتاب المعارف وفيه يقول: (... حدّثنا إسماعيل بن أبي صالح في قول الله عزّ وجلّ: "والبحر المسجور" قال: إنّ عليّا رضي الله عنه يقول: هو بحر تحت العرش، ويعلّق على ذلك: (وهذا شبيه بما ذكر في التوراة من أنّ السماء بين ماءين).

وبذلك يكون القرآن الكريم قد اتّفق مع الفلسفات القديمة التي اعتمدت الماء ضمن عناصر وأصول الحياة. وبما أنّ الأساطير الدينية تتحدّث عن خلق الإنسان الأول من التراب والماء، وكان الإنسان قد حاول في فكره الديني أن يحوّل أسطورة خلقه الأولى الى ممارسة طقسية يقوم بها بحياته وكلّما احتاج إلى أن يولد ويخلق من جديد، فهي إذن عملية تواصل مع الخلق الأول والتجديد في الحياة.

خاتمة:

لعلّنا نخلص في هذه الورقة العلمية إلى جملة من النتائج أهمّها ما يلي:

- ارتباط الماء بالعقل الروحي و الديني لكثير من معتقدات البشر و دياناتهم.
- الماء مصدر حياة وتجدّد وانبعاث وقدسية وطهارة، ويمثل هذا الحقل الصورة الإحيائية للقوّة الكامنة في عنصر الماء، ولكن ثمة قوة أخرى له، إنّها القوة التدميرية أو الصورة السلبية الرمزية للماء، "فهي تدمر الأشكال وتلغيها، وقدرها أن تسبق الخلق، وأن تقضي عليه.

- وفي إطار الرمزية السالبة للماء يظهر الماء مساويا للموت، وهو ما يرمز لرجوع الإنسان إلى "العماء الأوّل"؛ أي المياه البدئية التي انبثق عنها .
- أمّا في إطار الرمزية الموجبة فيتحوّل الماء إلى عنصر التطهير فالماء الطهور يغسل الخطايا ويطهّر الجسد والروح .
- أبرز استخدامات الماء في الأديان يتعلّق بالاعتبارات الخاصة بموضوع الطهارة، والتطهّر بحد ذاته.

_ الماء أصل جميع المخلوقات ومبدؤها في أساطير بدء الخلق فهو الأوّل أصلا لجميع الكائنات وهو الآخر طوفانا تعاقب به البشرية، إذن فلا غرو أن يكون الماء رمزا من رموز البشرية الحبلى بالدلالات، وأن يكون مادة أسطورية عند الشعوب القديمة بظاهرة الماء.

الإحالات:

(1)- سورة الأنبياء الآية 30.

(2)- بشرى قطاع، الماء والمقدس (دراسته في أنترو بولوجيا الماء)، مجلة واتا للترجمة واللغات السنة الأولى، العدد4، 2007.

(3)- فراس السواح– مغامرة العقل الأولى،دار الكلمة للنشر، بيروت 1982 ط3،ص23.

(4)- سورة هود، الآية رقم07 .

(5)- مرسيا إلياد، المقدس والدنيوي، تر: نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر . دمشق ط1، ص12.

(6)- ماكس شابير ورودا هندريكس ،معجم الأساطير.تر: حنا عبود ،دار علاء الدين ،سوريا،ط1999، ص 125-127.

(7)- مرسيا الياد: صور ورموز.تر: حسيب كاسوحة، دراسات فكرية، العدد 36 سوريا ،ط1998، ص200 .

(8)-المرجع السابق .ص202.

(9)- د ثناء أنس الوجود.رمز الماء في الأدب الجاهلي. دار قباء.ط1986 .ص56.

(10)- أدولف أرمين ، ديانة مصر القديمة، تر: عبد المنعم أبو بكر، ط .الباب الحلبي القاهرة، 1965 ص 17.

(11)- جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ت د .إمام عبد الفتاح إمام، ط 1993 ص 36.

(12)- lhttp://gehanmony.blogspot.com/2010/07/blog-post_4948.htm

(13)- أحمد شوقي، الشوقيات، دار الكتاب العربي بيروت–لبنان، (د س)، ج3 ص 195.

(14)- محمد العريسى .الديانات الوضعية المنقرضة.ص 2.(د س).

(15)- جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، تر: د إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة: د عبد الغفار مكاوي، ط1978، الكويت، ص73.

(16)- مرسيا الياد: صور ورموز.تر: حسيب كاسوحة، دراسات فكرية، العدد 36 سوريا، ط 1998، ص 201 .

(17)- كان بحر "الأوقيانوس الأعظم" في الأساطير اليونانية هو ذلك البحر الذي لا تثيره ريح وهو مصدر جميع الماء الذي تفيض به البحار والأنهار والقنوات والينابيع والعيون ويجري باستمرار في حلقة دائرية حول الأرض– (المترجم): فيلسوف يوناني .

(18)- شاوفرأسطوس (272 . 287 ق.م) .

(19)- جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب،تر: د إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة: د عبد الغفار مكاوي، ط، 1978، الكويت، ص61-62 .

(20)- الأبستاق :هو الكتاب المقدس عند الزرادشتيين، أنظر.المعتقدات الدينية لدى الشعوب .بردانر الجفري .ص91.

(21)- الهوما: نبات ولكنّه أكثر من ذلك إله.

(22)- فرقة دينية صغيرة جنوب العراق مجاورة لإيران من سلالة يوحنا المعمدان.

(23)- جفري برنارد، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ط1. تر: د. إمام عبد الفتاح إمام. ط 1993.ص270.

(24)- ثناء أنس الوجود، رمز الماء في الأدب الجاهلي القاهرة، دار قباء. 1986 ،ص62 .

(25)- محمد عجينة،موسوعة أساطير العرب ودلالتها ج، دار الفارابي، ج 1، ط 2005، ص261.

(26)- المرجع السابق.ص263.

(27)- أحمد بن محمد إبراهيم الثعالبي،عرائس المجالس، دار الحيدري، ط 1295هـ ،ص 193 .

(28)- عبيد بن الأبرص، الديوان، تحقيق: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، ط 1994، ص85.

(29)- أبو عبد الله الزوزني، تقديم: عمر أبو النصر، شرح المعلّقات السبع، منشورات دار مكتبة الحياة، (د س)، ص .74.77.

(30)- ثناء أنس الوجود، رمز الماء في الأدب الجاهلي، القاهرة. دار قباء .ط 1986، ص1.

(31)- ابن هشام .السيرة النبوية.دار الكتاب العربي. بيروت.ط 2005.ص59 .

(32)- عبيد بن الأبرص، الديوان، تحقيق: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي ،ط 1994،ص85.

(33)- المرجع نفسه، ص 93 .

(34)- أبو عبد الله الزوزني، تقديم: عمر أبو النصر، شرح المعلّقات السبع، منشورات دار مكتبة الحياة، (د س)، ص 74.77 .

(35)- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ط4، دار المعارف، 1934، ص 678.

(36)- محمد عجينة، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها.ج 1. دار الفارابي.بيروت–لبنان.ط1. 1994.ص 253.

(37)- د ثناء أنس الوجود.رمز الماء في الأدب الجاهلي .دار قباء.ط 1986 .ص 56.

(38)- ابن هشام. السيرة النبوية.دار الكتاب العربي. بيروت.ط 2005.ص 59.